إسرائيل وبداية العد العكسي
3- حماس والمد الأصولي في المنطقة

د. محمد عبد العزيز ربيع

أستقبل فوز حماس في الانتخابات الفلسطينية من غالبية القوى الفلسطينية، والمؤسسات البحثية والجهات السياسية الرسمية والإعلامية الغربية، باعتباره مفاجأة كبرى، وذلك خلافا لما كان من المفروض أن يكون عليه الحال. إن اتجاه إدارة الرئيس بوش إلى إهمال عملية السلام المتعلقة بالصراع العربي الإسرائيلي، وقيام الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة بالعمل الحثيث على وأد كل خطط التسوية السياسية، وتكثيف مسلسل الجرائم بحق الشعب الفلسطيني والاعتداء المتواصل على أراضيه، ساهمت بفاعلية في تصاعد شعبية قوى المقاومة التي تقودها المنظمات الأصولية على الساحة الفلسطينية. ومن الأمور التي ساعدت على تسارع ذلك التطور، تنازل الدول العربية تحت الضغوط الأمريكية عن الفعل والتأثير في مجرى الأحداث، واتجاهها في ذات الوقت إلى السكوت عن النشاطات المؤيدة للمنظمات الأصولية، وذلك تجنبا لإغضاب شعوبها، وخوفا من الاضطرار لمواجهة التيارات الدينية ودفع المعتدلين إلى التطرف.

إن نجاح حركة حماس في الانتخابات الفلسطينية جاء في أعقاب نجاحها في كسب المزيد من الدعم الشعبي والتأييد الجماهيري لفكرة المقاومة، وذلك بعد فشل عملية السلام، وغرق السلطة الفلسطينية في بحر من الفساد المالي والضياع السياسي، وظهورها بمظهر العاجز عن القيام بواجباته تجاه الشعب والوطن والقضية. وفي ضوء الواقع الفلسطيني المرير الذي يدعو لليأس والإحباط، برزت حماس من بين الركام لتقدم المعونات للمحتاجين من أبناء الشعب،وتقود عمليات المقاومة ضد قوى الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتعيد رفع شعار التحرير لكامل التراب الفلسطيني، وتدعو لإقامة دولة فلسطينية على أنقاض دولة إسرائيل.

على الرغم من إصرار حركة حماس على رفض الوجود الصهيوني في فلسطين رفضا كاملا، وتأكيدها المستمر على وجوب تحرير كامل التراب الفلسطيني، إلا أن حماس أبدت أكثر من مرة استعدادها للقبول "مؤقتا" بدولة فلسطينية على الأرض التي احتلتها إسرائيل في عام 1967، وعاصمتها القدس. ومن اجل تنفيذ برنامجها السياسي، والقيام بممارسة المقاومة المسلحة ضد قوى الاحتلال الإسرائيلي، كان على حماس أن تتوجه إلى التحالف والتعاون مع القوى العربية والإسلامية ذات الأهداف المشابهة والمواقف المماثلة. وفي الواقع لم يكن نجاح حماس ممكنا لولا الدعم المادي والمعنوي الذي كانت ولا تزال تتلقاه من المنظمات الإسلامية المنتشرة والمتنامية في المنطقة العربية، ومن الفئات الاجتماعية المتدينة في فلسطين وخارجها، خاصة من السعودية، ومن بعض الدول المناوئة لأمريكا وإسرائيل في منطقة الشرق الأوسط، ومن بينها إيران وسورية.

ولفترة طويلة من الزمن، كانت إيران هي الدولة الشرق أوسطية الوحيدة التي تخضع لنظام حكم إسلامي، يحكم باسم الدين والشريعة، ويعمل على نشر ثقافة المواجهة مع أمريكا وإسرائيل، ويقوم بالتعاطف مع المنظمات العربية والإسلامية التي تتبنى أفكارا مشابهة وتسعى لتحقيق أهداف مماثلة، خاصة فيما يتعلق بالدعوة إلى إقامة نظم حكم إسلامية، والوقوف موقف المناوئ للنفوذ الأمريكي في المنطقة والوجود الصهيوني في فلسطين. ولهذا وجد كل من حزب الله في لبنان، وحركة حماس في فلسطين الدعم والتأييد النوعي من طهران، حيث تجاوز ذلك الدعم البيانات السياسية إلى تقديم المال والسلاح لحزب الله وبعض المال لحماس.

إن وجود مسافة شاسعة بين إيران وإسرائيل جعل احتمالات المواجهة العسكرية بين الدولتين بعيدة، خاصة بعد أن صرح الرئيس الإيراني السابق أن بلاده لن تعارض حلا سياسيا لقضية فلسطين يوافق عليه الفلسطينيون أنفسهم. إلا أن تصاعد الضغوط الأمريكية والإسرائيلية على إيران لتفكيك برنامجها النووي، أدى إلى تنامي إحساس إسرائيلي إيراني مشترك باحتمال وقوع مواجهة عسكرية بين الطرفين. ومما زاد من حدة التوتر واحتمالات المواجهة، أن الضغوط على إيران كانت تتصاعد في الوقت الذي كان يشهد صعود النفوذ الإيراني في العراق، وانتخاب رئيس جديد لإيران يصر على امتلاك التكنولوجيا النووية ويرفض شرعية الوجود الصهيوني في فلسطين، ووقوع الشعب الفلسطيني تحت طائلة العقاب الجماعي الإسرائيلي غير المبرر.

وبينما كانت التطورات تسير في هذا الاتجاه المعقد، جاء فوز حماس في الانتخابات الفلسطينية ليزيد الأمور تعقيدا. فمن ناحية، كان على حماس أن تواجه محاولات التجويع والإفلاس التي قادتها أمريكا وإسرائيل وسارت الدول الأوروبية في ركابها. ومن ناحية أخرى، كان على حكومة حماس أن تواجه الضغوط العربية والدولية التي طالبتها بالاعتراف بإسرائيل دون مقابل، ولا حتى وعدا بالعودة إلى طاولة المفاوضات أو إطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين المعتقلين في السجون الإسرائيلية والذين تجاوز عددهم عشرة آلاف أسير. وبينما اقتصرت الضغوط الأمريكية والدولية على النواحي السياسية والمالية، واقتصرت الضغوط العربية الرسمية على العزلة السياسية والمضايقات الدبلوماسية، عادت إسرائيل إلى ممارسة الاغتيالات والقتل ضد الشخصيات القيادية في حركة المقاومة ، وتطبيق سياسات العقاب الجماعي ضد الشعب الفلسطيني، وتدمير البنية التحتية للسلطة الوطنية تدميرا شاملا، وهو ما قامت لاحقا بتطبيقه في لبنان أيضا.

وفي حمى العدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني، نجحت قوى المقاومة في غزة بالقيام بعملية عسكرية نوعية تسببت في قتل عدد من جنود الاحتلال وأسر جندي إسرائيلي، طالبت بمبادلته بأسرى فلسطينيين وعرب تعتقلهم إسرائيل منذ سنوات وعقود. إلا أن إسرائيل رفضت المطالب الفلسطينية واتجهت، بدلا عن البحث عن مخرج دبلوماسي للأزمة، إلى تطبيق سياسة أكثر تدميرا وعنفا من أي وقت مضى. ولما كانت الأهداف المعلنة بعيدة المدى لحماس وحزب الله متطابقة، فإن حزب الله قام بعملية عسكرية نوعية أيضا ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي أسفرت عن قتل ستة جنود إسرائيليين واسر اثنين، وهذا نقل الأزمة من نطاقها الفلسطيني إلى نطاق إقليمي غاية في التعقيد.

إن من الصعب على حماس وعلى حزب الله أن تربح حربها مع إسرائيل التي تقف وراءها أمريكا بكل ثقلها الدولي. لكن من الصعب على إسرائيل أن تستعيد الإحساس بالأمن الذي فقدته بعد سقوط صواريخ حزب الله في العمق الإسرائيلي. أما الخاسر الأكبر فهو قضية السلام والاستقرار في منطقة الشرق الأوسط عامة، والرابح الأكبر هو المد الأصولي الذي يغرس كل يوم ألف شتلة تبث الكراهية ضد أمريكا، وتنبت ألف قنبلة بشرية موجهة ضد الوجود الصهيوني في فلسطين.

للنشر يوم 3-8-2006

د. محمد عبد العزيز ربيع professorrabie@yahoo.com